الفصل الأول

ناحية غرب أوروبا

فتح المسلمين للأندلس - فتحهم لبلاد أفرانسة - الفتنة في الاندلس - مصرع الدولة الأموية وقيام العباسية- غزو الفرنجة لشمال الأندلس - الصلات الديبلوماسية بين الشرق والغرب.

والواقع أن العرب عرفوا الفرنجة أثناء توسعهم في المغرب، وذلك لأنه الوندال Vandalos[1] - وهم فرنجة - كانوا قد استقروا في شمال افريقيا، بعد أن طردهم القوط الغربيون من أسبانيا. ولعل هؤلاء الوندال، هم الذين سماهم العرب بالأفارق أو الأفارقة[2]، ووصفوا بأنهم أخلاط من سلالة أجنبية، وأصبحوا ضمن رعايا الروم، عندما استرد هؤلاء شمال افريقيا منهم؛ بحكم أن الروم ورثة الرومان. وعلى حسب قول ابن خلدون[3]، فإن دولة الروم في شمال افريقيا كانت من الفرنج في أغلبها؛ وليست من الروم، حتى أنه يعتبر ملكها جريجوريوس Gregorius، الذي يسميه العرب جرجير من الفرنج، وهو الذي حاربه العرب وقتله عبدالله بن الزبير في أيام الخليفة عثمان[4] وإن كانت نصوص أخرى تبيّن أن جرجير هو عم هرقل Heraclius إمبراطور الروم[5]، وأنه حقد على ابن أخيه لتوليته عرش الروم، فاستقل بشمال افريقيا.

كذاك عرف العرب الفرنجة حينما استولى حسان بن النعمان الغساني على قرطاجنّة في 689/69، وهو الفاتح الحقيقي للمغرب، في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان. فقد قدّرت عناصر أوروبية من قوط أسبانيا، وعناصر لاتينية من إيطاليا، إن سقوط قرطاجنّة فيه خطر على الدين المسيحي؛ فجاؤوا مع الروم ومعهم علامة الصليب لاستردادها[6]، ولا سيما أن الروم في المغرب منذ انفصالهم عن روم الشرق، قاموا في هذه النواحي بتشجيع بابوية

(1) يسميهم Procopius أيضاً: .Bandilois أنظر. Hist. of the Wars 2:2 ; 8-9 (p. 266-267)

(2) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب والأندلس، تحقيق Torrey ، ط New -Haven، 1920، ص 170 س 10-11؛ الكامل، 3 ص 13 س 9؛ انظر. ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، 2ص 53.

(3)العبر، 6 ص 107

(4) الأصفهاني، الأغاني، بولاق 1285هـ، 6 ص 59؛ أنظر. ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، 2 ص 56 -57.

(5) عن هذه القرابة، أنظر :Tauxier. Gregoire d'Afrique. Rev. Afr. 1885

(6) أنظر:Gibbon empire, ed, smeaton. London, 1950,5, p: The decline and fall of the Roman, 360

يعتمد على كتاب ليون الإفريقي. وأيضاً. ماجد، الدولة العربية، 2 ص 182، 202.

روما[1]، حامية الفرنجة وقتذاك. ثم إنه كان للقوط الغربيين أنفسهم عمال عديدون في بعض مدن على سواحل المغرب، المقابل لأسبانيا، ولا سيما في مدينة مشهورة عرفها العرب بإسم: سبتة Septa (Ceuta)[2]، وهي مدينة حصينة داخلة في البحر كالكف، صالحت عقبة بن نافع من قبل، لما غزا هذه النواحي[3]. وعلى الرغم من أن طارق بن زياد، مولى موسى بن نصير، الذي تولى حكم المغرب بعد حسان، قد استولى على طنج[4] Tingis المجاورة لسبتة، والواقعة على المضيق الذي قبلها، وهو يفصل بين ساحل المغرب والأندلس؛ إلا أنه لم يستطيع أن يفتح سبتة، وكان عليها وقتئذ رجل من القوط هو يليان .Julianus (Julian)

ولكن الإصطدام العربي الكبير بالفرنجة، كان في البلاد التي عرفت قديماً بإسم: إبارية Iberia, Iberus[5]، أو باطقة[6] Baetica، وهذه الأخيرة أطلقت فقط على جنوبها، ثم عمّمت عليها، وعرفت للنصارى بإسم: أشبانية أو أسبانيا[7] Spania,Hispaniaوإن عرفها العرب بالإسم الأعجمي: الأَنْدُلُش[8] Vandalicia، نسبة إلى قبائل الأندُلش Vandalos– وهم الوندال – الذين سكنوها قبل القوط في أوائل القرن الخامس الميلادي؛ وعرفوها أيضاً باسم: جزيرة الأندلس[9]، لإحاطة البحر بها من ثلاث جهات؛ كجزيرة العرب.

وهي بلاد واسعة على صورة مثلث تقع في جنوب غربي أوروبا، مقابل ساحل بلاد المغرب، وتنفصل عنه بمضيق: "خليج"، عرف قديماً باسم: Calpe، وعرفه العرب باسم: بحر الزقاق

(1) أنظر. Le Monde Oriental de 305, a,:Diehl et Marcais 1081,dans Hist. Gen, t3, p. 238

(2) أخبار مجموعة في فتح الأندلس، تحقيق La Fuente y Alcantara، طبعة Madrid، 1867، ص 4. عنها، أنظر. معجم البلدان، 5 ص 26-27؛ Ency. de I'lsl, (art Ceuta)tI, p. 857 sqq.

(3) ليفي بروفنسال، نص جديد عن فتح العرب للمغرب لعبيد الله، صحيفة العهد المصري في مدريد، المجلد 2، 1954، العدد 1-2، ص 2149. يقول النص: طنجة، بدل سبتة.

(4) فتوح البلدان، ص230. عنها، أنظر. معجم البلدان، 6 ص 61-62؛

Ency. de I'lsl, (art Tanger) t4, p. 683

(5) ابن عبد المنعم الحميري، صفة جزيرة الأندلس، تصحيح وتعليق Levi - Provencalالقاهرة 1937 ص 2

(6) صبح، 5 ص 211-212.

(7) صفة جزيرة الأندلس، ص1؛ أنظر. Ency. (art Al- Andalus) t1, p.354 يقول ابن الأثير: إنه اسم أحد ملوكها. أنظر. الكامل، 4 ص 119.

(8) معجم البلدان، 1 ص347؛ 5 ص 211-213؛ أنظر Ency. De I'lsl, (art al- Andalus) 1t, p. 354 sqq. 2ed t1, p. 486 sqq.

L'Espange musul. La conquête et I'Emirat, :Levi -prov. Hispano -umaiyade (912-710) t1. Nouv. Ed. Paris-Leiden, 1950, pp. 18-39. حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص4.

(9) معجم البلدان، 1 ص 350.

أو مجاز الأندلس[1]، وتمتد شمالاً إلى جبال البرتات أو البرينوه[2] Pyrenaei، التي تفصلها عن أفرانسة أو ما يسمى أيضاً بلاد أفرنجة العظمى[3]، من بلاد الأرض الكبيرة الممتدة حتى روما (رومية)[4]. ولقرب الأندلس من بلاد المغرب اعتبرها بعض الجغرافيين قسماً منها[5].

ومن وصف هذه البلاد الجغرافي، نعلم أنه تعترضها سلاسل جبلية متوازية أشهرها جبل الشارات أو الشاره[6] Sierras، وهو يقع في وسطها، ويمتد من الشرق إلى الغرب، ويقسّمها إلى نصفين. فكانت تسير في محاذاة الجبال وديان Guad أو Guadi عديدة، تصل بين الساحل والداخل، تجري فيها أنهار أشهرها: الوادي الكبير أو النهر الأعظم Gua-dalquivir، وآنه Guadiana، وتاجه Tagus (Tago)، ودويره Duero، وإبره .Ebro

كذلك توجد فيها مناطق صخرية وعرة جداً، ولا سيما في الركن الشمالي الغربي منها، المسمى: صخرة جليقيّة.Gallaccia (Galicia)

ويبدو أن أصول سكان شبه الجزيرة الأندلسية قريبة من أصول سكان البلاد الأوروبية الجنوبية، تتمثل في عناصر أصيلة مثل: الأيبيرين Iberus[7]، والبشكنس، أو البشكنيس، أو البسقاوية[8] أو البسكونس، وهم النبطوأ أو الباسك Basque (Escualdunac) إن الذين يعتبرون أنفسهم من أقدم الأصول. كذلك دخلتها عناصر أجنبية سكنت سواحلها مثل الفينيقيين، الذين احتلوها إلى عهد هانيبال، كما سكنتها عناصر يونانية. ولكن منذ الوقت، الذي احتل فيه الرومان – الرومانيين[9] – أسبانيا في 133م، وأصبحت فيه إقليماً Provincia رومانياً؛ غلب على هذه البلاد العنصر اللاتيني، حتى أن الهجرات التي أتتها بعدهم، لم تستطع أن تغيّر الطابع اللاتيني، كما أن اللغة اللاتينية أستعملت إلى وقت مجيء

(1) نفسه، 4 ص 395؛ فتوح البلدان، ص 230؛ المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق العريان والعربي، القاهرة 1949، ص 9؛ أنظر. Ency. de I'lsl, (art Bahr al- Maghrib) tI, p. 595 يقول ابن خلدون: إن الأندلس كانت متصلة بالمغرب إلى أن ركبها البحر. العبر، 6 ص 98.

(2) ابن غالب البلنسي، قطعة من كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، تحقيق لطفي عبد البديع، القاهرة 1956، ص 38.

(3) معجم البلدان، 1 ص 350 س 5.

(4) تقويم البلدان، ص 166، 169؛ ابن صاعد، ص 64. قاعدتها رومية.

(5) معجم البلدان، 8 ص 103.

(6) صبح، 5 ص 213.

(7) أنظر. Bremond: Op. cit, p. 222.

(8) الأصطخري، مسالك، تحقيق الحيني، ص 36.

(9) أخبار مجموعة، ص 16 س 9.

العرب، وهي التي سماها العرب العجمية أو الأعجمية أو اللطينية [1] وفي ظل حكم الرومان، جاءت الأندلس اعداد كبيرة من اليهود، الذين كونوا قسماً مهماً فيها، ولا سيما في المدن[2].

وفي القرن الخامس الميلادي، جاءتها هجرات المتبربرين من عناصر جرمانية آرية، انبثقت من وسط أوروبا، أهمها قبائل الأندلش[3] أو الوندال، الذين استولوا عليها من الرومان، ثم جاءها القوط الغربيون، حيث أخلوها أيضاً من الوندال، الذين انتقلوا إلى شمال افريقيا. وقد تمكن القوط من توطيد أقدامهم في جزيرة الأندلس، حتى غلبوا عليها من كل مكان، وهم الذين يسميهم العرب بالتسمية العامة لكل سكان أوروبا: الفرنجة، وأيضاً العجم[4].

ولكن وجود هذا الخليط من السكان، جعل هذه البلاد تعاني اضطرابات داخلية شديدة. فالعداوة بين القوط واللاتين أو بين العناصر الأولى من سكانها مثل البشكنس لم تهدأ[5]. ومن ناحية أخرى، كان من تحول القوط إلى المسيحية على أساس المذهب الأريوسي، وتمسكهم به مدة طويلة قبل تحولهم إلى الأثناسيوسية – وهي التي تطورت في أوروبا إلى الكاثوليكية أن أوجدت المذهبين في أسبانيا؛ وكان ذلك عاملاً من عوامل الاضطراب فيها، وجعلها في عداء مع دولة أفرنجة العظمى المجاورة، التي سارعت إلى إتخاذ الكاثوليكية مذهباً لها. كذلك كان تحول القوط إلى دين النصارى نفسه، سبباً في ظهور عداء صليبي ضد اليهود من سكان الأندلس؛ فكانوا يرغمونهم على التنصر[6]، وكل ملك من القوط يتخذ تعذيب اليهود أساساً لسياسته. فنحن لا ندهش إذا وجدنا اليهود في الأندلس يئنون تحت ضغط حكم القوط، ويقبلون على المكايدة[7].

ثم إن المجتمع الأسباني كان مبنياً على أساس نظام الطبقات؛ مما أوجد الحزازات بينها. فتأتى في طليعته طبقة رجال الدين، الذين كانوا عدداً وفيراً، يخضعون للبابا في روما، ولا سيما بعد تحول القوط إلى مذهب روما الكاثوليكي؛ فهم بذلك يكون خضوعهم لسلطة روحية أجنبية. يضاف إلى ذلك غنى رجال الدين الفاحش؛ فكانوا يمتلكون الأراضي والأموال الكثيرة، حتى أن المؤرخ جيبون Gibbon قال عنهم: إن أسبانيا القوطية "دولة يركبها

(1) أنظر. Origines del Espangol. 3ed. Madrid, 1950؛ c.f. Pidal مؤنس، فجر الأندلس، ص 417.
(2) أنظر. بعده.
(3) الكامل، 4 ص 179؛ قبله. يقول المراكشي: من قبائل الإفرنج. المعجب، ص7.
(4) نفسه، 4 ص 120 س 16.
(5) أنظر. Camb. Med Hist. I, p. 291
(6)) أنظر. Church and state in Wisigothic, Spain Zeiyler Washington, 1930, p. 121, 165-196
(7) أنظر. I'Islam et les Races. Paris, 1922, t2, p. 117 Pierre André

القساوسة A priest ridden State. ثم يليهم طبقة النبلاء ومعظمهم من العنصر القوطي؛ حيث قسمت البلاد إقطاعات بينهم[1]، بما فيها الأقاليم Provinciaeوالمدن Givitates؛ فكان يحكم كل إقليم دوق Dux، وكل مدينة قومس (كونت) Comes. فكان هؤلاء يتحكمون في السلطة التنفيذية، فهم يقيمون المحاكم والجيوش، ولهم ألقاب يتوارثونها. وأخيراً طبقة الرقيق Servi أو Esclavi؛ وهي كبيرة جداً لأن العصور الوسطى لا تعرف غير طبقة متوسطة صغيرة، وأغلبهم من الفلاحين أهالي البلاد الأصليين؛ قبل مجيء القوط. فكان على الفلاحين أن يتنازلوا عن ثلث أراضيهم لمن يريد الأرض من القوط[2]؛ وإن كانوا في الحقيقة يعملون لديهم كعبيد. بمعنى آخر أن المجتمع الأسباني مجتمع مختل، قد بني على أساس أن يكون هنالك سادة منتفعون، وهم رجال الدين والنبلاء، وعبيد معدمون، وهم أهالي البلاد الأصليون.

أما الدولة نفسها؛ فكانت تعاني الإضطرابات من وجود النزاع على مبدأ الحكم التقليدي هو النظام الملكي الإنتخابي، عن طريق مجلس نبلاء القوط، وأشراف البلاد، وكبار رجال الدين، وأفراده يسمون: Seniores و .Majores[3] وقد كان إذا تولى الملك؛ فإن الأشراف تبعث بأولادها الذكور والإناث إلى بلاط ملكهم، دلالة على الولاء[4]. وكان ملوك القوط يقربون رجال الكنيسة، لكي تساعدهم على إقامة دولة وراثية؛ مما جعل الكنيسة تتدخل في السياسة. ولكن النبلاء والأشراف كانوا يريدون الإبقاء على مبدأ الإنتخاب وقبل غزو العرب للأندلس، حدث نزاع على تولي العرش: فيبدو أن الملك Witiza، الذي يسميه العرب "غيطشة"؛ أراد أن يورّث ابنه وقلة أو أخيلا Achila العرش؛ فأغضب ذلك النبلاء وعلى رأسهم Rodrigo، الذي يسميه العرب روذريق.

كذلك كان غيطشة – كما يظهر من النصوص – يعارض قرارات البابوية،" ويحابي اليهود[5]؛ مما أغضب رجال الدين أيضاً. وربما يكون روذريق قد قتل غيطشة، وارتضى النبلاء به ملكاً[6] مما جعل أولاد غيطشة، وعلى رأسهم أخيلا، يفرون إلى المغرب الذي فيه العرب.

(1) Torres y Bances : Instituciones .. de la Poninsula Hispanica durante los Siglos V- VII, en Historia de Espana, III, Madrid, 1940, cf.

(2) أنظر ما أورد من تفصيل: العدوى، المسلمون والجرمان، 1960، ص 103.

(3) أنظر. Brémond; 1928, p. 70-69: Nouvelle Histoire d'Espanage. Paris, :Legendre Op. cit, p. 233

(4) الكامل، 4 ص 121.

(5) أنظر. Historia de los Heterodoxos, :Menédez Pelayo Espanoles. Madrid, 1946, p. 368-367 مؤنس، فجر الأندلس، ص 482.

(6) الكامل، 4 ص 121؛ أخبار مجموعة، ص5، لدينا أسماء مختلفة، منها: الأذريق (العيون والحدائق، تحقيق Anspach, Juynboll طبعة Brill، 1871، ص3)، وهو يقول: إنه لقب ملوك الأندلس، كما هو لقب الأكاسرة، أو لذريق (عبيد الله، نص جديد، ص 224)، أو أذرينوق. الكامل، 4 ص 119.